نـابليون والصراع على السيادة في أوروبا

م .م . حسين حماد م.م. احمد راشد جريذي
كلية الآداب / جامعة الانبار

المقدمـــة

قبل التحدث عن نابليون والصراع على السيادة في اوروبا عامة وفرنسا بصورة خاصة لابد من إعطاء صورة واضحة عن أحوال اوروبا وخصوصاً فرنسا قبل اندلاع الثورة الفرنسية التي من خلالها برزت شخصية نابليون على المسرح السياسي في اوروبا .

فقد تضافرت عوامل مجتمعة في فرنسا أدت إلى حدوث هذه الثورة .

فعلى الصعيد السياسي والاجتماعي كانت فرنسا تعيش حالة من الاستقرار النسبي في ظل حكم لويس الرابع عشر الذي اهتم بالفنون والأدب ونال حب الشعب واحترامه ، ولكن بعد وفاته وانتقال العرش إلى رجال اقل منه شأناً بدأ العبء ينزلق تدريجياً عن كاهل الملك ووزرائه إلى كاهل الطبقة الوسطى بدأت تبرز في عهد لويس السادس عشر الذي اتسم بضعف الشخصية والذي حدثت في عهده الثورة وأصبحت الضرائب تفرض بشكل فادح على الفئات الضعيفة ، واصبح مالك الأرض هو الفئة المتنفذه في السلطة وله امتيازات خاصة وفرضت نوعان من الضرائب منها ضريبة العقار أو (الأرض) وضريبة الرأس التي تقع على عامة الناس .

أصبحت الطبقة الوسطى غير راضية إذا ما قورنت بطبقة النبلاء ورجال الدين فكان تذمرهم وتمردهم ضد هذه الأوضاع عامل أساس في إشعال فتيل الثورة .

أما على الصعيد الاقتصادي فعلى الرغم من كون النشاط الزراعي جيد في فرنسا إلا إن الحكومة لم تستطيع أن توفر الغذاء الكافي للشعب بسبب الحروب الطويلة والبذخ على المستوى العام والخاص وضعف الملوك وعجزهم كل ذلك أدى الى فوضى اقتصادية في البلاد وعجز الحكومة عن الإيفاء بالديون وبذلك تفاقمت هذه الديون على فرنسا فتدهور الوضع الاقتصادي .

ونتيجة لتدهور الوضع الداخلي في فرنسا حدثت الثورة التي برز من خلالها نابليون كقائد فرنسي استطاع أن يقود الثورة بنجاح لولا تدخل الدول الأوربية والتحالف فيما بينها من اجل القضاء على حلم نابليون بجعل القارة الأوربية تحت حكمه.

المبحث الاول

أ – حياة نابليون بونابرت

كان نابليون من عائلة بونابرت من اصل نبيل ، وكان قد مرت عليهم (٢٠٠) سنة في كورسيكا كعائلة من نبلاء كورسيكا ، وكان احد البونابرتيين قنصل عام في جزيرة كورسيكا عام ١٧٧١ كما ان سجل جامعة بيزا يحتوي على (١٥) خمسة عشر اسماً من أسرة ال بونابرت بين الاعوام (١٦٣٣-١٧٥٤) وهذه دلائل تشير ان اصلهم ايطالي وله صلة بمدينة فلورنسا والبندقية وقد سجل بعض الكتاب اصول العائلة المنحدرة من عمانوئيل الثاني والمتزوج باحدى الاميرات المقدونيات في نهاية القرن الرابع عشر[١]
كان شارل بونابرت عمره (١٨) سنة عندما تزوج في اذار عام ١٧٦٤ من (وليسيا راموليندِ) وهي فتاة جميلة في الرابع عشر من عمرها [٢]
في عام ١٧٦٩ ولد نابليون بونابرت فرنسياً- ايطالياً حيث راى النور في مدينة (اجاكسيو) عاصمة كورسيكا في ١٥ اب عام ١٧٦٩ وهي السنة التي انضوت فيها الجزيرة تحت الحكم الفرنسي بشكل نهائي بعد مفاوضات بين عامي (١٧٦٨-١٧٦٩) واندحار الحزب الكورسكي .[٣]
كان والد نابليون رشيقاً ذكياً ميالاً الى الشعر والبلاغة لكن عاش مسرفاً مضطرباً بأحواله المالية ، مغامراً في الحصول على مايريده من المال وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة ، وهو امر غريب بين الكورسيكين وكان يستطيع أن يكتب كتابات (فولتير) باللغة الايطالية . [٤]
لقد كان زواج (شارل) من (ماري) هو زواج حب فقد كانت غنية اذ كان والدها مهندساً غنياً مفتشاً في الطرق والجسور ومن خلال ذلك استطاع بونابرت ان يصرف بسخاء لتحرير كورسيكا فقد جلبت معها حوالي(٣٠٠) باون عندما تزوجت ، وكانت طوال حياتها مهتمة بتربية أطفالها وكانت دائماً تقول ((ليته لم يقم بهذه الفتوحات لانها تزول بالسرعة التي حصل عليها)).[٥]
كان احتلال فرنسا لكورسيكا قد جعل ابناء نبلاء كورسيكا مؤهلين ليدرسوا مع ابناء نبلاء فرنسا وعاملوهم على قدر من المساواة وعلى هذا الاساس كان نابليون مؤهلاً لأن يدرس في المدارس الفرنسية على حساب الحكومة الفرنسية واستطاع شارل ان يستفيد من هذا القانون الذي صدر عام ١٧٧٠ فذهب مع عائلته الى فرنسا مع بعض الاصدقاء وحصل نابليون على الزمالة الفرنسية في نهاية كانون الاول عام ١٧٧٨ وبدأ دراسته في الاول من كانون الثاني عام ١٧٧٩ فتعلم اللغة الفرنسية وتكلم بها بطلاقه ودرس نابليون في مدرسة (بريين) العسكرية في مايس عام ١٧٧٩ الى تشرين الاول عام ١٧٨٤ وخلال مدة الدراسة تكونت شخصية نابليون واثناء مدة دراسته كان متفوقاً على ابناء العوائل الارستقراطية الفرنسية في جميع النواحي .[٦]
تخرج نابليون من الكلية العسكرية برتبة ملازم ثاني في الجيش الفرنسي وبراتب قدره (٥٥) باوند في السنة [٧]
ومن فرنسا انتظر نابليون بزوغ مستقبله فهل كانت الصدفة ام الغريزة ام القوى التي تالبت حملته على الاختيار .

ب- العوامل التي ساعدت نابليون على الظهور:

١- حاجة فرنسا وظروفها الداخلية والخارجية

كانت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ قد احدثت تغيرات وتحولات سياسية وفكرية مهمة على مستوى العالم بشكل عام وعلى صعيد القارة الاوروبية بشكل خاص فكان من الطبيعي ان تحفز اصحاب المصالح وانصار المذهب القديم من اجل الوقوف بوجه الثورة ودرء الخطر عن انفسهم وعن أنظمتهم الاقطاعية لان الثورة جاءت بلائحة حقوق الانسان والغاء كافة الامتيازات الطبقية والغاء نظام السخرة والعبيد وقد واجهت الاصلاحات في الداخل بمعارضة اطراف عديدة منهم اليعاقبة ورجال الدين وعامة الناس والنبلاء في الداخل والملكية الفرنسية نفسها لانهم جردوا من كافة الامتيازات التي
حصلوا عليها كما واجهت معارضة من الخارج متمثله بالنبلاء والمهاجرين والدول الاوربية والبابوية والامراء الالمان [٨]
ونتيجة للاوضاع المتردية والفوضى السياسية وظهور عهد الارهاب الذي ذهب ضحيته الالاف من الفرنسين وزحف الجيوش الاوربية نحو الاراضي الفرنسية كان لابد من ظهور قائد سياسي عسكري يستطيع ان يغير مجرى الاحداث فكان بروز شخصية نابليون بونابرت[٩].

٢- الحملة العسكرية على ايطاليا

نتيجة للوضع الراهن في فرنسا وازاء الظروف القائمة لم يجد نابليون صعوبة في اختيار طريقه فادرك ان من مصلحته الانظمام الى الحكومة القائمة رغم عدم ارتياحة واحتقاره للقابضين على زمام امورها فالتحق بجيش الجمهورية المعسكر في ميناء (طولون). [١٠]
ولما قررت فرنسا مهاجمة النمسا في ايطاليا اختارت نابليون بونابرت لقيادة قواتها فقاد الجيش الفرنسي عبر جبال الالباد ودحر جيش سردينيا ثم زحف نحو عاصمتها (تورينو) واضطر ملكها مهادنة نابليون والتنازل عن عن (سافوي) و (نيس) لفرنسا وتمكن نابليون من عبور نهر (بو) وتطهير سهول (لومبارديا) من الجيوش النمساوية ودخل (ميلانو) وخضع له كل

من امير (بارما) (مودينا) وتنازل البابا لفرنسا عن ولايته في ايطاليا وواصل نابليون تقدمه حتى وصل الى (فينا) بعد ان سحق الجيش النمساوي الذي يبلغ تعداده حوالي ٦٠٠٠٠ ستين الف مقاتل في معركة (اركول) وعلى اثر هذه الهزيمة اضطرت النمسا الموافقة على توقيع معاهده (كومبوفورميو) في١٧ تشرين الاول عام ١٧٩٧ والتي نصت على مايلي :-

١- اعتراف النمسا بنهر الراين حدوداً لفرنسا .
٢- تنازل النمسا عن الاراضي المنخفضة (بلجيكا ولمبارديا) والجزر الايونية وميلانو مقابل ضم البندقية الى النمسا .
٣- اعتراف النمسا بشمال ايطاليا كمنطقة نفوذ فرنسية وضم غربي الراين الى فرنسا .

بعد هذه الحملة العسكرية عاد نابليون الى فرنسا فاستقبله الفرنسيون بحفاوه بالغة واعتبروه منقذ فرنسا وفاتح ايطاليا وبذلك استطاع نابليون من القضاء على النمسا ولم يبق في الميدان سوى بريطانيا .[١١]

وبذلك اصبحت الحكومة الفرنسية مدينة للضابط الشاب الذي حقق لها ذلك الانتصار الباهر في الوقت التي كانت فيه باشد الحاجة الى ذلك الانتصار فرقته الى رتبة لواء وان اسناد قيادة الجيش الى نابليون بدلاً من (شيرر) كان في حمله اذ استغل نابليون قوة الجيش وايمانه برسالته واستعداده للتضحية وخوض المعارك[١٢]

يتضح مما تقدم ان نابليون كان يعتمد منذ البدء على وحدة القيادة التي لايمكن تحقيقها الا عندما تكون الادارة السياسية والعسكرية بيد رجل واحد

وهذا نراه واضحاً عندما كتب الى حكومته في ١٩ كانون الثاني عام ١٧٩٦ قائلاً ((ينبغي ان تكون الحكومة واثقة ثقة تامة بقائدها وان تترك له حرية عمل واسعة ، وان تحدد له الهدف الذي تريد تحقيقه فقط))[١٣] وبذلك لم يكن نابليون يستشير احد في العمليات العسكرية التي يقودها .

٤- الحملة على مصر والتحالف الاوروبي الثاني

نتج عن عقد معاهدة (كامبوفورميو) انه لم يبق من اعداء فرنسا الستة سوى عدو واحد هو انكلترا التي ظلت معادية لنابليون من دون الدول الاخرى وكانت هذه في نظر نابليون اصلب اعدائه لما لها من ثروة وقوة بحرية واتساع المستعرات وقد بقيت انكلترا ملاذاً امناً للاجئين من دعاة الملكية الفرنسية ومحوراً للتحالف الاوربي ضد فرنسا ومادامت انكلترا على ذلك الحال فهذا يعني ان النظام الذي اقامته الثورة الفرنسية يبقى مهدد .[١٤]

راى نابليون ان حكومة الادارة لابد ان تصطدم بالدول الاوربية فتقع في مشاكل كبرى لذلك قرر تركها مدة ليرى الناس ضعفها وعدم كفائتها ولتسقط نفسها بنفسها فنظم حملة على مصر مدفوعاً بعوامل شتى كالتشبهه بقيصر والاسكندر وتشييد امبراطورية تضم الشرق الى الغرب ولقطع الطريق عن التجارة البريطانية مع الشرق وكذلك اتخاذ مصر قاعدة للتوسع الاستعماري .[١٥]

اراد نابليون ان يتخلص من الجو السياسي المضطرب في باريس ثم فايقن ان الشهرة مهما تبلغ فان جذوتها لاتلبث ان تنطفيء حتى انه في ٢٩ كانون الثاني عام ١٧٩٨ قال ((لا اريد المكث هنا ، فليس من عمل اقوم به ، ان تنطفي آذان القوم صمت وان هذا البلد قصير النبوغ ... فليس اوروبا بالميدان الواسع اتساعاً كافياً اما الشرق فمجال نيل الشهرة الواسعة)).[١٦]

اقلع نابليون من طولون في ١٩ ايار عام ١٧٩٨ على راس جيش مدرب مؤلف من ٣٨ الف محارب وضمت الحملة عدد كبير من العلماء في شتى مجالات العلوم حتى بلغوا (١٥٠)عالم واكثر من (٢٠٠٠) متخصص من خيرة الفنانين والرسامين والتقنين الذين رافقوا الحملة يدل ذلك على رغبته في ان يكون احتلال مصر مخالفاً لاحتلال الدول الاخرى ومحادثته بلغة جديدة.[١٧]

لقد كان طريق الحملة الفرنسية البحرية الى مصر ، طريقاً محفوفاً بالمخاطر فعلى الرغم من وجود الاسطول الانكليزي في البحر المتوسط فقد تجرأ الاسطول الفرنسي على مهاجمة مالطة وقد تمكن الاسطول الفرنسي بعد ذلك من الوصول في اليوم الاول من تموز الى مياه الاسكندرية وانزلت المراكب الحربية للبحرية الفرنسية ووجه نابليون نداءاً الى الشعب المصري يدعوهم الى الاستكانة والتعاون وادرك ضرورة مجاراة الميول الدينية السائدة في مصر فبدأ يجلس في الجامع الازهر ولبس العمامة وبدأ يتقرب من الشعب لكن حادثتان افسدت على نابليون كل خططه ، الحادثة الاولى هي تحطيم الاسطول الفرنسي على يد الاسطول الانكليزي في موقعة (ابي قير) في اب عام ١٧٩٨ وبذلك قطعت الاتصالات بين الجيش الفرنسي في مصر والحكومة الفرنسية والحادثة الثانية هي اعلان الدولة العثمانية الحرب على فرنسا .[١٨]

على اثر هذه التطورات اصدرت الدولة العثمانية فرمانات تدعو المسلمين لطرد نابليون من البلاد الاسلامية فحدثت ثورات عديدة منها ثورة القاهرة الاولى وثورة القاهرة الثانية وبينما كان نابليون في السويس جاءته الانباء بأن (احمد باشا الجزار) والي سوريا جهز جيشاً لمقاتلة الفرنسيين فوجد نابليون مبرراً لغزو بلاد الشام للدفاع عن مركزه ولتأمين حدود مصر الشرقية بعد ان اصبح عاجزاً عن الزحف الى الهند .[١٩]

وصلت الاخبار الى نابليون ان الدول الاوربية اقامت تحالفاً ضد نابليون بسبب حملته على مصر لان الدول المتحالفة لها مصالح واهداف في المنطقة فلو نظرنا الى روسيا لوجدنا لها مصالح في الدولة العثمانية وبما ان مصر احدى اراضي الدولة العثمانية فهذا يتعارض مع مصلحة روسيا واما الدولة العثمانية فان جزء من اراضيها قد احتل فلابد ان تنظم لهذا الحلف واما

بروسيا فارادت من خلال هذا الحلف ان تنتقم لخسارتها وتوقيعها لصلح (بازل) عام ١٧٩٥ لذا نجد معظم الدول الاوروبية قد شاركت في الحلف الا ان الخلاف سرعان مادب بين المتحالفين ولم يبقِ في الساحة سوى بريطانيا فعقد عام ١٨٠٢ صلح (اميان) وكان سبب عقد الصلح هو تدهورالوضع الاقتصادي الفرنسي وعدم دخول البضائع البريطانية كما ان البرجوازية الفرنسية ضغطت على فرنسا لعقد هذا الصلح فضلاً عن خوف بريطانيا من مشاريع نابليون الاستعمارية وبذلك انتهى التحالف دون ان يحقق اهدافه المنشودة (٢٠).

٥- العامل الاجتماعي

تظافر مع العوامل السابقة عامل اخر لا يقل اهمية عنهما كان له الاثر الواضح في تعزيز طموح نابليون في الوصول الى السلطة والظهور على مسرح الاحداث السياسية وكان هذا العامل هو التقاءه بـ(جوزفين) أرملة الكونت (دي بوهارنيه) الذي قطعت مقصلة الثورة الفرنسية راسه وكانت تلك السيدة تتمتع بمكانة اجتماعية واسعة لذلك كان زواجه منها عاملاً اخر يضاف الى مجمل العوامل التي جعلت من نابليون الرجل الاول في فرنسا .(٢١)

المبحث الثاني

ارتقاء نابليون السلطة

١- عهد القنصلية

وصل نابليون باريس في ١٦ تشرين الأول عام ١٧٩٩ وكانت حكومة الادارة تنتظر مواجهة الخطر الاوربي فضلاً عن تدهوراوضاع البلاد بسبب الاهمال والبطاله وافلاس خزينة الدولة فراى نابليون ان يستغل ذلك الوضع المتدهور الذي يعم البلاد فقرر ترشيح نفسه عضواً في حكومة الادارة لكن هذا الترشيح يتطلب رغبة وموافقة بقية الاعضاء فلم يجد قبولاً واستجابة في ان يكون عضواً في حكومة الادارة من قبل الاعضاء الاخرين.(٢٢)

على اثر هذا الرفض عمل نابليون من اجل اسقاط حكومة الادارة وبالفعل تمكن في ١٨ تشرين الثاني عام ١٧٩٩ وبالاتفاق مع (سييس) و (لوسيان) اخو نابليون بالقيام بانقلاب (برومير Brumaire) واجبر الحكومة على الاستقالة واصبحت السلطة بيد ثلاث رجال هم (نابليون ، وسييس ، وديكو) وقد كان التنافس شديداً على السلطة بين (سييس) صاحب النظريات السياسية والفكر العميق و (نابليون) صاحب السيف .(٢٣)

كان النزاع لايزال قائماً في حكومة الادارة بين السلطتين التنفيذية والتشريعية ; بسبب الانظمة والقوانين التي وضعت في دستور عام ١٧٩٥ فعمل نابليون على تطهير المجلسين من المعارضة ونصرة الحكومة المؤقتة الجديدة .(٢٤)

بعد ان الغى نابليون دستور عام ١٧٩٥ اصدر الدستورالجديد (دستور السنة الثامنة عام ١٧٩٩) الذي يقضي بوضع السلطة التنفيذية بيد ثلاث قناصل ينتخبهم مجلس الشيوخ لمدة عشر سنوات ، على ان يكون نابليون القنصل الاول وله الحق في اعلان الحرب وتوقيع المعاهدات وانتخاب الوزراء وكبار الموظفين ورؤساء الادارة بفروعها المختلفة ، ويكون القنصلان الاخران مساعدين له فقط .(٢٥)

اما الهيئة التشريعية فقد تألفت من ثلاث مجالس هي :-

١- مجلس الشوخ (senat) :- ينتخب اعضائه لمدى الحياة ويبلغ عددهم (٨٠) ثمانين عضواً ويكون انتخابهم في المرة الاولى بواسطة القناصل ومهمتة هذا المجلس انتخاب اعضاء المجلسين الاخرين والاشراف على تطبيق فقرات الدستور .

٢- المجلس التشريعي :- يتكون من (٣٠٠) ثلاثمئة عضو يتجدد خُمس اعضائه سنوياً ومهمته رفض او قبول القوانين ويكون بشكل سري .

٣- مجلس التربيون (Tribunat): يتكون من(١٠٠) مائة عضو يسقط خمسهم في نهاية كل سنة ومهمته درس القوانين التي تعرض عليهم من دون ابداء رأيهم بالقبول او الرفض وقد الغى نابليون هذا المجلس عام ١٨٠٧ م .

وقد عرض هذا الدستور على الشعب لغرض الموافقة عليه وتم ذلك على الرغم من مافيه من عيوب لكن بسبب الضغط والتهديد فلم يكن امام الشعب سوى الموافقة .(٢٦)

بعد ان اصبح نابليون القنصل الاول في البلاد اعلن من خلال اول اجتماع لمجلس الدولة في ٢٥ كانون الاول عام ١٧٩٩ اعاده حقوق المواطنة للمهاجرين الفرنسيين واقاربهم من النبلاء السابقين كما اعلن حرية العبادة وحرية الاديان لجميع المواطنين وازال الامتيازات والحقوق الاقطاعية كما انه سيطر على وزارة المالية في ادارة الضرائب وجمعها وقام نابليون باصلاحات قضائية واسعة فجعل القانون في ضوء وافكار ومفاهيم

الثورة الفرنسية واصدر القانون المدني لعام ١٨٠٤ واهتم بالتربية والتعليم فأنشا مدارس الثانوية واسس دار المعلمين العالية .(٢٧)
يبدو من خلال ماتقدم ان نابليون كان هدفه الاساس من الاعمال التي قام بها تحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي المتردي في فرنسا ولاسيما بعد الضعف الذي دب في الحكومة فضلاً عن محاولة كسب موقف الشعب الفرنسي الى جانبه ومساندته في السلطة .

٢- الامبراطور والتحالف الدولي الثالث

لم يكن صلح اميان عام ١٨٠٢ سوى هدنة مؤقتة بين فرنسا وانكلترا حيث عملت كلتا الدولتين على تعزيز قدراتهما العسكرية فتمكن نابليون من الاستحواذ على السلطة واصبح قنصلاً مدى الحياة ولكي يصبح امبراطوراً ويحصل على العرش الامبراطوري كان يتوجب عليه تحسين العلاقة السيئة مع البابوية فقد احتفظ لنفسه بالسلطة الادارية بينما ابقى للبابا السلطة الروحية على الكنيسة وبذلك اصبح نابليون مستعداً لمراسيم التتويج كامبراطور لفرنسا وحضر في كانون الاول عام ١٨٠٤ للقيام بذلك لكن يجب عليه ان يعيد النظر في اجهزة الحكومة ليجعلها تتماشى مع نظم واهداف العهد الجديد وان يرفع اسرته الى درجة القيام بمهام اسرة الامبراطور العظيم.(٢٨)
اعلنت الدول الاوروبية الحرب على نابليون بسبب التطورات الاخيرة في فرنسا ومنع نابليون السفن الانكليزية من الوصول الى الساحل الغربي من اوروبا وبذلك عمل نابليون على اضعاف التجارة الانكليزية وقامت الدولة الاوربية بتشكيل التحالف الثالث عام ١٨٠٥ ضم كل من (انكلترا وروسيا والنمسا والسويد) من اجل القضاء على نابليون الذي زعزع التوازن الدولي الاوروبي ولاسيما بعد تحويل ايطاليا الى ملكية وراثية يحكمها ابن زوجته (يوجين) والحاق (جنوه) و(بارما) و(بيد مونت) باملاك فرنسا وتدخل نابليون في الشؤون الداخلية لسويسرا وعمل على محالفة الولايات الالمانية من اجل اضعاف النمسا وبروسيا .
كان دخول النمسا في هذا الحلف من اجل التخلص من المعاهدات السابقة التي عقدتها مع فرنسا ومنها معاهدة (كامبوفورميو) والتخلص من تدخل
فرنسا في المقاطعات الالمانية لكن نابليون تمكن من الاحاطة بالنمساوين بزعامة (ماك Mack) في معركة (اولم Ulm) واضطرهم الى الاستسلام في عام ١٨٠٥ كما تمكن من تحقيق النصر على الجيشين النمساوي و الروسي في موقعة (اوسترليتنز Austerlitz) في ٢ كانون الاول عام ١٨٠٥ وكان من نتائج هذا الانتصار انسحاب النمسا من الحلف الثلاثي وتوقيع معاهدة ((بريسبيرك Pressberg) في ٢٦ كانون الاول عام ١٨٠٥ وتنازلت النمسا عن (البندقية ودلماشيا والتيرول) لفرنسا وبذلك اصبحت ايطاليا وجنوب المانيا تحت النفوذ الفرنسي .(٢٩)
اما بروسيا فقد حاول نابليون اقناعهم عدم الانضمام الى الحلف الثلاثي مقابل اعطائها مقاطعة (هانوفر) ، وافقت على ذلك لكن بسبب مماطلة نابليون في ايفاء وعده اضطرت بروسيا للعودة الى الحلف مما اضطر نابليون الى اعلان الحرب عام ١٨٠٦ وتمكن من الانتصار على البروسين في معركة (يينا jena) ودخل نابليون برلين ولجأ (فردريك وليم الثالث) الى قيصر روسيا ووضع نفسه في حمايته مما دفع نابليون الى توجيه حملة ضد (اسكندر الاول) لحمايته لفردريك وتمكن من تحقيق النصر في موقعة (فريد لاند Friedland) عام ١٨٠٧ والتي كان من نتائجها توقيع معاهدة (تلست Tilsit) وبموجبها تخلت روسيا عن املاكها في غرب نهر الالب(Elbe) وانشأ نابليون مملكة وستفاليا (Westphailia) ونصب عليها اخاه الاصغر (جيروم Jerome) ملكاً كما تنازلت روسيا عن املاكها في بولندا الى ملك سكسونيا حليف الفرنسيين وتعهدت روسيا بالانظمام الى جانب نابليون في الحصار القاري مقابل تحقيق اطماع الروس في املاك الدولة العثمانية وفنلندا .(٣٠)
تمكن نابليون من تحطيم التحالف الثلاثي ولم يبق في ساحة المواجهة سوى بريطانيا فعمل نابليون على فرض الحصار القاري على انكلترا وكان الهدف منه اقفال اوروبا بوجه الصادرات البريطانية (٣١) ومن اجل تحقيق هذا الهدف اصدر نابليون عدة مراسيم منها مراسيم برلين والتي من خلالها اعلن الحصار القاري على انكلترا في ٢١ تشرين الثاني عام ١٨٠٦ ونص على غلق الموانيء الفرنسية بوجه الدول المتحالفة مع انكلترا كما اصدر مراسيم وارشو (١٨٠٧ – ١٨١٠) حيث تم توسيع مفهوم الحصار وان أية سفينه تتاجر مع انكلترا سوف تتعرض للمصادرة واية بضاعة يتم العثور عليها سوف تحرق لكن هذا الحصار فشل لان الدول المتحالفة مع نابليون لم تلتزم بالحصار فضلاً ان التطبيق لاقى معارضة شديد ة من اطراف متعددة اولها البابا الذي امتنع عن تطبيق الحصار القاري مما دفع نابليون الى انتزاع املاك البابوية من البابا ونفاه من ولاياته في عام ١٨٠٩ وألقاه في السجن وربط جميع املاكه بالنظام الاداري للإمبراطورية الفرنسية مما اثار هذا العمل العالم الكاثوليكي ضد نابليون .(٣٢)
كان تفكير نابليون الوحيد هو التخلص من انكلترا والسطيرة على اوروبا
وذلك عن طريق التحالف مع روسيا الا ان سياسته كانت خاطئة فلم يفِ نابليون بوعوده التي قطعها بموجب معاهدة (تلست Tilist) وكذلك فان زواج نابليون من الاسرة النمساوية دفعت بالقيصر الروسي الى الانسحاب من سياسة التحالف مع نابليون فضلاً عن الحصار القاري الذي اضر كثيراً بـ(روسيا) لم يشأ نابليون الدخول منذ البدء في حرب مع روسيا فقد كتب الى اسكندر روسيا يقول ((ان هذا العمل هو تكرار مارايته في روسيا سنة ١٨٠٦ وفي فيينا سنة ١٨٠٩

اما من جهتي فسابقي صديق جلالتك ولو اضطر الشؤم الذي يستولي على أوروبا أن يضع السلاح في أيدي شعبينا. إنني لن أهاجم في الأول ولن تزحف كتائبي الا بعد ان تمزق جلالتك معاهدة تلست)) .

وفي ٢٣ كانون الاول سنة ١٨١١ صدر مرسوم يضع تحت تصرف وزير الحربية الفرنسي (١٢٠٠٠٠) مائة وعشرين الف جندي وفي ١٣ اذار ١٨١٢ صدر مرسوم جديد بتنظيم الحرس الوطني وتقسيمه الى ثلاث فرق وفي ١٦ اذار تألف من الفرقة الاولى المكونة من (٦٠٠٠٠) ستين الف جندي الجيش الداخلي الذي عهد اليه الدفاع عن الحدود .(٣٣)

كان نابليون يامل من خلال حملته على روسيا ان يجعلها محطة على الطريق بين اوربا واسيا فقال ((ان الناس يرغبون ان يعرفوا الى اين نحن ذاهبون اننا سنعمل على الانتهاء من أوروبا .... ونغدو بعد ذلك اسياد والهند ..)) (٣٤) كان قادة الجيش الفرنسي متخوفين من نتائج الحملة الفرنسية على روسيا فنصحوا نابليون بالتراجع وتشديد القبضة على المناطق المحتلة وتاجيل الحملة على موسكو الى صيف العام القادم ونابليون نفسه كان متردداً في الحملة الا ان الروس استخدموا اسلوب تكتيكي بالتوغل اكثر حتى بلغوا منطقة (سمولينسك) حيث تجمع الجيش الروسي فتوقع نابليون القضاء عليه هناك بسرعة الا ان القطعات الروسية انسحبت حسب الخطة المرسومة بعد يومين .(٣٥)

جهز نابليون جيش مؤلف من (٦٠٠٠٠٠) جندي وسار به الى روسيا في صيف عام ١٨١٢ وكان مقسم الى (١٣ فرقة) مع استثناء الحرس الوطني وقد عهدت قيادة الفرقة الاولى الى (دافو) والثانية الى (اودينو) والثالثة الى (ناي) والرابعة الى الامير (اوجين) والخامسة الى (بونياتووسكي)

والسادسة الى (كوفيون سن سير) والسابعة الى (رينييه) والثامنة الى

(جيروم) ملك وستفاليا والتاسعة الى (فيكتور) والعاشرة الى (ماكدونالد) والحادية عشرة الى (اوجرو) والثانية عشر الى (مورات) والثالثة عشرة الى امير (شوار تيزنبرج)(٣٦)

تمكن الروس من خلال خطة مدبرة من الايقاع بـ(نابليون) اذ انسحبت القوات الروسية من جميع المدن حتى دخل نابليون موسكو في ١٤ ايلول عام ١٨١٢ بعد ان احرق اهلها كل مافيها من مخازن الحبوب والعتاد وكل شيء يمكن للعدو ان يستفيد منه وما ان حل الشتاء حتى عجز نابليون عن البقاء في موسكو فاضطر للانسحاب باتجاه الحدود الاوروبية لكنه واجه عقبات كثيرة منها قطع (كوتوزوف) الطريق الجنوبي عن نابليون فضلاً عن فقده لما يقرب من (٥٠٠٠٠) خمسين الف جندي وضابط في المعارك وعلى الرغم من محاولة القائد الفرنسي (ناي Nay) في انقاذ الجيش الفرنسي الا انه فشل في ذلك حتى أطلق عليه (اشجع الشجعان).(٣٧) وهكذا خابت آمال نابليون في موسكو ووضع حدَّ لحملاته العسكرية وتبخرت أحلامه وسار في موسكو فوق اطلال تحوم حولها العقبات وفي شوارع فقدت الأمن والأمان ولم يجنِ من تقدمه الا الدمار والخراب .(٣٨)

٣- الامبراطور والتحالف الدولي الرابع

بعد ان خسر نابليون في حملته على روسيا بدأ الشعب الروسي يطالب بنقض الحصار القاري الذي أضر بمصالحهم الاقتصادية والتجارية وبالمقابل عملت الحكومة على عقد معاهدة (كاليش Kalich) في ٢٨

كانون الثاني عام ١٨١٣ مع بروسيا وكان هدف هذه المعاهدة هو التحالف

من اجل القضاء على نابليون في اوروبا .

سارع نابليون من اجل الوقوف بوجه هذه المعاهدة ودرء الخطر عن بلاده فشكل جيش لملاقاة اعداءه فتمكن من الانتصار في معركتين هما (لوتزن Lutzsn) في ١٤ مايس عام ١٨١٣ ومعركة (بوتزن Bautzen) في ٢١ مايس عام ١٨١٣ لكن هذه الانتصارات لم يكن لها فاعلية لان الدول الاوروبية جاءت بروح جديدة مما دفع نابليون الى تغيي ر سياسته لاسيما بعد تدخل النمسا لعقد صلح مع روسيا وبروسيا بشرط اعادة املاكها التي استولى عليها نابليون لكن نابليون رفض ذلك مما دفع النمسا الانضمام الى الحلف الرابع في ٢٧ تموز عام ١٨١٣ كما انضمت السويد الى التحالف مما اضطر نابليون للعمل على مواجهة كل جيش على حده حيث تمكن من الانتصار على النمسا في باديء الامر في منطقة (درسدن Drasden) لكن اخفاق القاده الفرنسيين في الميدان مكن الحلفاء من احكام السيطرة في (لايبزك Leipzig) مما اضطر نابليون الى التراجع الى ماوراء الراين بعد تكبيده خسائر فادحه (٣٩)

بدات في ١٦ تشرين الاول عام ١٨١٣ معركة جديدة مع نابليون سميت (معركة التحرير – معركة الامم) حيث تمكنت قوات الحلفاء من الحاق الهزيمة بنابليون وتراجعه الى فرنسا وعرض عليه شروط عديدة منها ان تحتفظ فرنسا بحدودها الطبيعية الراين والالب والبرنس وان يستمر نابليون في الحكم كإمبراطور لكن نابليون رفض ذلك مما دفع دول التحالف الى غزو شمال فرنسا .

عقدت الدول الاربع (بريطانيا ، روسيا ، النمسا ، بروسيا) معاهدة (شومون Chaumont) تعهدت فيها توحيد الجهود لمدة عشرون عاماً وان لاتعقد أي دولة صلحاً دون موافقة الدول الاخرى وان تتخلى عن الحرب حتى يسقط عن الحرب حتى يسقط نابليون كما وتعهدت كل دوله بتجهيز (١٥٠٠٠٠) مائة وخمسون الف جندي ووعدت

بريطانيا بتقديم مساعدة خاصة قدرها خمسة ملايين جنيه . وفي ٣١ اذار عام ١٨١٤ دخلت قوات التحالف باريس وبعد ثلاثة عشر يوماً وقع نابليون مع الحلفاء معاهدة (فونتبلو) الشخصية وبموجبها تنازل عن عرشه وعن جميع الحقوق التي تعود لاسرته في فرنسا مقابل اعطائه جزيرة (البا Elba) في البحر المتوسط ومرتب سنوي مقداره مليون فرنك واعطاء دوقيه (بارما) الايطالية الى الامبراطوره (ماريا لويزا) مع مرتب مقداره مليونان ونصف المليون فرنك لاسرة نابليون . أمضى نابليون عشرة اشهر في جزيرة البا حيث وصلت الانباء اليه بان الحلفاء متنازعون حول الغنائم [٤٠] تمكن نابليون من الهرب ووصل الى باريس حيث استقبله الشعب الفرنسي والضباط الفرنسيين وخطب فيهم قائلاً (ايها الجنود سنزحف لنطرد من الحدود هؤلاء الامراء الغرباء ، أما الامة فستدعمنا ليس بامانيها بل بالحث والتحريض ...) وتلقى الجنود الخطبة بحماس وظهرت كتيبة جزيرة البا التي يقودها (كامبرون) الذي لم يصل الى باريس في الوقت الذي وصل به الامبراطور .

كانت الدول الاوروبية مجتمعة في مؤتمر فينا لرسم خريطة اوروبا لكن وصلت اليهم الانباء عن هروب نابليون مما عكر الاجواء فتناست الدول الكبرى الخلافات فيما بينهم وجددوا التحالف من اجل الوقوف بوجه نابليون والخلاص منه فأعلنت (بريطانيا ، روسيا ، النمسا ، بروسيا) ان نابليون نقض العهد فحشدوا جيوشهم للزحف على فرنسا .

حاول نابليون ان لايواجه الدول الاربع مجتمعة لان اعداد جيوشهم كانت كبيرة تفوق بشكل كبير تعداد جيش نابليون حيث بلغ تعداد الجيش البريطاني بقيادة (ولنكتون) حوالي (١٠٠٠٠٠) مائة الف مقاتل وتعداد الجيش البروسي بقيادة (بلوخر) حوالي (١٢٠٠٠٠) مائة وعشرون الف مقاتل اما تعداد جيش نابليون فبلغ حوالي (١٢٠٠٠٠) مائة وعشرون الف مقاتل واستطاع نابليون ان يحقق انتصارات عديدة مكنته من عبور الحدود الفرنسية الى (واترلو) في بلجيكا .[٤١]

دارت في ١٨ حزيران عام ١٨١٥ معركة (واترلو Waterloo) الحاسمة التي من خلالها خسر نابليون كل شيء وسلم نفسه الى الحكومة الانكليزية ودخل الحلفاء باريس للمرة الثانية وفرضوا على فرنسا معاهدة باريس الثانية في ٢٠ حزيران عام ١٩١٥ التي نصت على اعادة حدود فرنسا الى ماكانت عليه قبل الثورة وان تدفع غرامة حربية مقدارها (٧٠٠ مليون فرنك) اما نابليون فقد نفي الى جزيرة (سنت هيلانه St.helena) وبقي فيها اسيراً حتى مات في ١٥ مايس عام ١٨٢١ وظل مدفوناً فيها حتى نقل جثمانه الى قبة الانفليد في باريس عام ١٨٤٠.[٤٢]

الخاتمة

حضي نابليون بثقة وتقدير الشعب الفرنسي لما حققه من انجازات عظيمة حيث تمكن من انهاء العهد القديم وظروفه الصعبه فلم تعد هناك هيئات او طبقات غير خاضعة للقانون .

تمكن نابليون من الاستحواذ على السلطة بكل قوة فاصبح القنصل الاول في البلاد بفضل ذكاءه وعبقريته العسكرية صار يطلق عليه بالامبراطور الاول وبعد ان نال هذا اللقب بدأت احلامه ونشاطاته تتوسع فاخذ يتطلع لان يصبح امبرطوراً لاوروبا باجمعها الا ان هذا الحلم لاقى معارضة شديده من قبل الدول الكبرى (بريطانيا ، بروسيا ، روسيا ، النمسا) فاخذت هذه الدول تتحالف ضده من اجل القضاء عليه بشكل نهائي فكانت الاحلاف الاربع التي عقدتها تلك الدول .

ان ازدهار الامبراطورية النابليونية سرعان ما اخذ بالانحدار نحو الافق بفضل عوامل كثيرة كان نابليون ينفذها من دون ان يعلم انها ستكون في يوم من الايام سبباً في انهيار امبراطوريته فقد كان الحصار القاري سبباً في صراعه وصدامه مع روسيا الذي اضر كثيراً باقتصادها وخوف روسيا من نابليون ان يجعل بولندا دوله قوية تهدد مصالحها .

وقد كانت الضرائب الفادحة التي فرضها على الشعب الفرنسي من اجل تسديد نفقات الحروب الطويلة مع الدول الاوروبية سبباً في تذمر الشعب فضلاً عن سلوكه الاستبدادي وتزوجه من امراة من الاسر القديمة (ال هبسبرك) زاد من نقمة الشعب ضد نابليون .

على الرغم من النكبات والخسائر التي لحقت نابليون الا انه رفض الاستسلام والاكتفاء بعرش فرنسا مما دفع الحلفاء الى تجديد الحرب ضده والعمل على القضاء عليه بشكل نهائي وتم ذلك في اخر معركة بين نابليون والدول الاوروبية وهي معركة (واترلو) ليقضوا وبشكل نهائي على حلم نابليون بان يصبح امبراطوراً لاوروبا وبذلك انتهى الصراع على السياده في اوروبا بين نابليون والدول الاوروبية .

الهوامش

1- J.M .Thomson , Napalean Bonaparte , His rise and fall, Basil Biack weel , 1953

- انظر علي حيدر سلمان تاريخ اوروبا الحديثة ، الطبعة الثالثة ، بغداد ، ١٩٣٧ .
٢- الياس ابو شبكة ، تاريخ نابليون بونابرت (١٧٦٩ – ١٨٢١) ، بيروت ١٩٢٩ .
٣- د. محمد مظفر الادهمي ، اوروبا في القرن التاسع عشر ، الرباط ، مطبعة دار المعارف الجديدة ، ١٩٨٥ .
٤- هربت فشر ، نابليون ، ترجمة محمد مصطفى زياده ، محمد نوفل ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨ .
5 - Thompson , op.cit .
6 - Thompson , Ibid .

٧- د.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، التاريخ الاوروبي الحديث والمعاصر ، ط ٥ ، دار الكتاب الجامعي ، القاهره ، ١٩٩٥ .
٨ – راي تاناهيل ، باريس في سنوات الثورة ، ترجمة العام عثمان ، القاهره ، ١٩٨٦ .
9- Thompson , op.cit .

١٠- اوكتاف اوبري ، نابليون ، ترجمة منري شماس ، المطبعة البوليسية ، ١٩٦٩ ، انظر/ علي حيدر سليمان ، المصدر السابق .
١١- د. محمد مظفر الادهمي ،تاريخ اوروبا الحديث (عصر النهضة - الثورة الفرنسية - القرون ١٦ - ١٨ ميلادي)،بغداد ،١٩٨٩ .
١٢- عبد الحميد البطريق ، عبد العزيز نوار ، التاريخ الاوروبي الحديث والمعاصر (من عصر النهضة الى مؤتمر فيينا) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ .
١٣- ج . ف . س. فوللر ، ادارة الحرب (من عام ١٧٨٩ حتى ايامنا هذه) ترجمة اكرم ديري ، ط ٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، .١٩٨١
١٤- أوبري ، المصدر السابق .
١٥- فاروق عثمان اباظه ، تاريخ اوروبا الحديث والمعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٥ .
١٦- فشر ، المصدر السابق .
١٧- أوبري ، المصدر السابق .
١٨- محمد فؤاد شكري ، الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٢ .
١٩- فشر ، المصدر السابق .
٢٠- فشر ، المصدر نفسه .
٢١- اوبري ، المصدر السابق .
٢٢- البطريق ، نوار ، المصدر السابق .
٢٣- عبد الرحيم عبد الرحمن ، المصدر السابق .
٢٤- اميل لود فيج ، نابليون ، ترجمة محمد ابراهيم الدسوقي ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ١٩٤٦ .
٢٥- محمد قاسم ، تاريخ اوروبا في القرن التاسع عشر ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
٢٦- عبد الرحيم عبد الرحمن ، المصدر السابق .
٢٧- علي ادهم ، شخصيات تاريخية ، دار القدس ، ١٩٧٤ .
٢٨- محمد قاسم ، حسين حسني ، تاريخ اوروبا الحديثة ، القاهرة ، .١٩٣٤
٢٩- البطريق ، نوار ، المصدر السابق .
٣٠- عبد الرحيم عبد الرحمن ، المصدر السابق .
٣١- د. جلال يحيى ، د. جاد طه ، معالم التاريخ الاوروبي الحديث ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٣ .
٣٢- هـ . ا . ل . فشر ، تاريخ اوروبا في العصر الحديث ، ترجمة . احمد نجيب هاشم ، وديع الضبع ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٦ .
٣٣- الياس ابو شبكة ، المصدر السابق .
٣٤- فشر ، تاريخ اوربا في العصر الحديث .
٣٥- محمد صبري ، الثورة الفرنسية ونابليون ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٧ .
٣٦- الياس ابو شبكة ، المصدر السابق .
٣٧- عبد الرحيم عبد الرحمن ، المصدر السابق .
٣٨- الياس طنوس حويك ، تاريخ نابليون الاول ، ج ٢ ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١ .
٣٩- رولان موسنييه ، ارنست لابروس ، مارك بولوازو ، تاريخ الحضارات العام (القرن الثامن عشر عهد الانوار) و المجلد الخامس ، ترجمة يوسف اسعد داغر ، فريد م. داغر ، ط ٢ ، منشورات عويدات ، بيروت - باريس ، ١٩٨٧ .
٤٠- د. فاضل حسين ، د. كاظم هاشم نعمه ، التاريخ الاوروبي الحديث (١٨١٥ - ١٩٣٩) ط ١ ، بغداد ، ١٩٨٢ .
٤١- الياس ابو شبكة ، المصدر السابق .
٤٢- عبد الرحيم عبد الرحمن ، المصدر السابق .